

النهر

مصطفى مبارك

كانت هواية النهر ، عندما يصل عندنا ، ان يتلکأ ويتمهل عند المنحنى الذي تضطجع عليه قريتنا الطيبة ذات البيوت الطينية المتلاصقة ، كأنه يستمتع بظلال اشجار النخيل العملاقة المعمرة التي تحفّ به من الجانبين على مد البصر . وطوال رحلته المترفة في الشمال كان يتذوق احاديث اهالي قريتنا البسطاء الطيبين مثلها الذين يحبونه كما يحبهم . وتشهد بذلك الطرق المتعددة المتعرجة التي خلفتها ارجل العائدين من النهر والذاهبين له طول اليوم . ورغم انه يكاد ان يطوق القرية ويلتف حولها كأفعى سمراء ضخمة الا انه لم يحاول في يوم من الايام ان يعتدي علينا او يقلق امننا . كان بالحق أبانا كما كنا ندعوه . ولكن حب عمي شيخ حب الله للنهر كان يختلف عن اي حب آخر اعرفه ، واذكر انه غضب وثار عندما سمع احاديث تدور في سوق الاربعاء عن ابتداء اعتداءات النهر المتكررة ، وانه هدم المتاريس وجرف الخضروات . وقال لاصحاب الاحاديث وهو يشير بيده المعروفة النحيلة تجاه النهر العكر الذي كانت المياه ترقص عنده وتدور حول نفسها في تلك الساعة كأنها خبلت او كأنها ثملى بنحمر مجهولة :

« يشهد الله لم يأكل منا جذع نخلة ولا طفلا ... ولا حتى معزة . ولا ابالغ اذا قلت انني استطيع ان اعبره بفروتي . وانتم اهالي الشعديناب غاضبون عليه لانه لم يجر لصق قريتك ، فتكيلون له الاتهامات وكأنني بكم تريدون ان تحولوا مجراه بأيديكم » .

ويقفز على ظهر حماره وهو يواصل حديثه ملتفتاً لهم بين آونة واخرى ، قائلاً قبل ان يبتعد ، كأنه لن يأتي بعد ذلك للسوق ابداً :

« كل يوم سوق ترددون كلامكم الفاضي هذا ... فعل ... فعل ... فعل . الا انه لا يستطيع ان يتحدث ويدافع عن نفسه . حسناً ، سأفعلها انا نيابة عنه » .

ويضرب صدره بمقدمة اصابعه المجموعة :

« ان حديثكم هذا يؤلني ... اجل يؤلني هنا » .
ولكن حديثه هو الذي آلمني اكثر .

آلمني هنا ايضا في عقلي ، الذي لم يستطع ان يفسر كيف يحب الانسان النهر هذا الحب ،
كيف يحب الماء والطين ويدافع عنه بمثل هذه الحرارة .

وعندما عدت للقريه بعد انتهاء السوق ساعة احتضار الشمس واغفاءة النخيل العملاق
الذي يقف كالحارس الامين لأسراب الفتيات العائدات من النهر بدلو الماء الاخير ، اسرعت
لجدتي وسؤالي في عيني ، وجلست قربها واخذت ازودها بأخبار السوق وخبراته ، وانا
أدلك لها في قدميها . ثم وضعت سؤالي بعد آهة استحسان لضغطة مرضية على قدميها
الكليتين :

« أصحيح جدتي ان عمي حب الله يستطيع ان يعبر النهر بفروته ؟ »
« ومتى قال هذا ؟ »

« قاله في السوق جدتي . كما قال انه سيضرب اهالي الشعديناب اذا تحدثوا عن النهر
بعد الآن . لماذا يفعل ذلك جدتي ؟ لماذا يحب النهر هكذا ؟ قال ايضا ان النهر لا يجري
لهم ، هل هو كذلك جدتي ؟ »

كانت الشمس قد ذبلت ، مخليه السبيل للزبد من ارتعاشات الشتاء الحزين ؛ وكانت
الرياح الباردة الهازلة ، التي تجعل الانسان يتكور تحت الغطاء فيما بعد منتصف الليل ، تستتر
خلف ظلام ضبابي . كان الاهتمام قد غزا وجه جدتي الطباشيري الذي كنت اراه بوضوح
رغم الظلام . واخرجت السفه الجافة واعادتها للحقة مرة اخرى ، واخذت تحكي لي في
صوت ميكانيكي رتيب كهل مثلها :

« في غابر الازمان عندما خير ربي وربك ورب الكون النهر في ان يختار مجراه ، قال
انه يريد ان يجري قربنا لان هذا يقلل له المسافة ؛ ولكن هذا يضطره لان يتعد عن قرية
الشعديناب ولان تقل فعاليته لهم . فغضبوا وقاطعوه واحفروا لهم آباراً يشربون منها ...
ان عمك هذا مجنون : لماذا يحادثهم ؟ منذ كنا صغاراً نسمع منهم هذا ، وهو بالطبع
لا يفعل للنهر شيئاً ولا يقلل من حبه لنا » .

وجذبت اليها قدميها في ملل وهي تتشاءب :

« اخرج العب في الخارج ، اريد ان اصلي ؛ سأدعو لكم وللنهر بدوام العافية » .

وكانت للشتاء في ذلك الحين محاولات غزو فاشلة بدأها منذ اسبوعين ؛ كانت الرياح تهب عند شروق الشمس ولا تعود الا في الليل التالي ؛ الا انه أتى صادقا هذه المرة ، مما جعل الاطفال وصغار المعيز والاغنام الهزيلة والعاطلين من الرجال يحتلون دائماً اسفل اسوار المنازل التي تواجه قرص الشمس . وزاد ذلك بالطبع في عدد الساعات التي امضيتها في ذلك قديمي جدتي . وزاد ذلك بالطبع ايضاً في ذخيرتي بموضوع عمي حب الله ، بحيث لم اجد صعوبة في تفهم موقفه في الفيضان الذي اتى لنا مع احمرار النهر في هدوئه المعتاد عند منحنا . الا ان الزبد كان يصحبه هذه المرة ، وقد اخذت السنة النهر تعلق التروس والتراب الذي يغطي جذور النخيل . وكنا نسمع في اثناء الليل صوت كتل التراب الضخمة التي يلتهمها وتهاوى في جوفه . وارتفع مستوى الماء الزاحف حتى صار صغار الاطفال والفتيات يحضرون الماء من عند منتصف الطريق الذي كان يؤدي للنهر . ولم يمر ذلك بسلام ومن دون ان تعلق عليه السنة اهل الشعديناب :

« ان اباكم النهر اقبل عليكم ولن يحميكم منه شيء » .

لكن عمي الشيخ حب الله لم يغضب بل ضحك وقال لهم :

« حتى لو ابتلعنا فاننا لن نأتي لأراضيكم التي اصبحت نجسة بماء الآبار . انتم تخرفون ، ألا يداعب هو ؟ اتظنونه جامداً لا يشعر ؟ سيرجع . لكم أود ان يذهب لكم ويدفن آباركم ، لأرى ما ستفعلونه » .

وكانت جدتي تقول :

« ان لون هذا الماء لا يدعو للطمأنينة . ليست هذه عادته . اهل الشعديناب الحاقدون الجاهلون اثاروه ضدنا » .

وكان عمي حب الله يلزم النهر عند انبعاثته ، طول نهاره وليله والناس تراقبه ولا تتكلم ، كأنه لخبه له مسؤول عن امتداده غير العادي وعن شدوده . حتى جدتي الثرثرة قبل ان اسألها وضعت سبابتها على فمها وذهبت عني . كان الصمت يحتل القرية ، والنبيح يؤلم الكلاب فتركته ، ورفض النخيل العملاق ان يهز رأسه مع الريح . وكان عمي حب الله يرجع كل يوم من مكانه السابق ، وتلتهم المياه آثار قدميه في الرمال ، حتى صار مجلسه محاذيا صف النخيل المشوه الذي كان يعانق بعضه بعضا كأن كل واحدة منه تشفق على الاخرى . وبدأت بعض الامواج المتطفلة الصغيرة تتقدم نحو القرية وترفع رأسها وتحقق

فيها وهي توسوس لبعضها . وعندما امر عمي الشيخ حب الله ان نهجر القرية ونعتصم بالتل خلف قرية الشعديناب وتركه وحده لا شيء ابداً معه غير ابتسامته ، اطاعه القوم وسرنا في صف طويل نتعثر في الرمال والدموع ، وقد حملنا الاطفال والخفيف والغالي . وكانت جدتي تبكي :

« لا يمكن ان يفعل هذا ابداً . لا يمكن » .

وكانت الرياح المسعورة تلسعنا ، وصوت ارتطام التربة بالماء ، عندما مررنا بقرية الشعديناب الساخرة .

وتموت الريح عند الليل ، وحديث الناس بالتالي يغشاه الموت ، في رقدتنا وتبعثرنا في الرمال الباردة وبكاء الاطفال الصغار وبكاء حشرات الليل الوحيدة وعواء ذئب حائر متطفل لا يدري من الامر شيئاً . هكذا حتى الصبح ، حيث رافق الشمس صباح كأنه عشرات الاصوات تستغيث من جهة قرية الشعديناب . وامطى الرجال منا الطريق ، رغم ان الرمال كانت تمسك ارجلهم . كانت جحافل المياه تطوق قريتهم ، وانقلبت ضحكات استهزائهم استغاثات حيرى ، وقام رجالنا بانقاذهم والعودة بهم ، وقد عقل الذهول ألسنتهم وافواههم . كنا نسمع اصوات ارتطام المنازل المنهارة بماء النهر المفاجيء ، كطبل كبير يقرع في غير ما انتظام ، وصوت كئل التراب المنتحرة التي كانت تلقي بنفسها في قلب المياه النهمة عندنا .

وعدنا للقرية بعد ان هدأت المياه واخذت الامواج المرهقة في اليوم الثاني تترامى تحت اقدام نخيل الشعديناب كأنما تطلب منه المغفرة . ووجدنا قريتنا كما تركناها . لقد رجع الماء من مكان جلوس عمي الشيخ حب الله الذي لم نعرف مكانه بعدها . واخذ البكاء يدور والحديث يدور حول عمي ومكانه ، واقسم احد اهالي الشعديناب انه رآه جالساً على فروته الطافية على سطح الماء وهو يمسك مسبحته بيده ويقود بالآخرى كتائب الامواج التي كانت تندافع خلفه نحو قريتهم .

لقد كاد النهر ان يخطيء معنا ، بعد ان اغواه اهل الشعديناب ؛ ولكن عمي الشيخ حب الله جلس وانتظره وضحى بنفسه ، وأقنعه بالرجوع وأراه طريق قرية الشعديناب ليذهب لها عله يستطيع ان يغسل قلوب اهلها السوداء الحاقدة . بل انه ركب فروته فوق ظهره ، كما كان يقول دائماً .

وكانت جدتي تبكي في المناحة وهي تردد مرتجفة :
« بنات امك بكن ولا كن عليك المر
وقالن حليله حب الله اخونا الحر
الجواب بليع فوق الدقون ينتر
ابو خالد حليله شمش علينا الضل
الجواب بليع في لسانه ما كضاب
جربوع الكتاب المن بعيد تنهاب
حزنانات عليك اخواتك التومات
وا حيرة ابوك في تدمر الكتابات
زايله ابو خالد . »